مهرجان أبي تمام .. المظاهرة والمؤتمر

بقلم أحمد عبد المعطي حجازي

هناك زاويتان في النظر الى المؤتمرات والمهرجانات الادبية التي تعقد بكثرة في هذه الايام للحكم عليها بالنجاح او بالفشل .

الزاوية الاولى هي النظر الى هذه المؤتمرات والمهرجانات باعتبارها اسواقا ادبية وثقافية يتعارف فيها الادباء والشعراء والعلماء العرب على اختلاف اقطارهم ، كما يتعرفون على نواحي الحياة في البلد الذي يذهبون اليه ويطلعون على مجالات نشاطه وتقدمه عامة وعلى نشاطه الثقافي بوجه خاص ويقدمون خبرتهم للقائمين عليه لاكتشاف آفاته المختلفة وتدعيم ايجابياته ومعالجة سلبياته . ثم ان اجتماع المثقفين العرب على تدارس تاريخهم وتراثهم والاحتفاء بأعلامهم ومناقشة مشاكلهم هو في الحقيقة تعبير عن عمق الوحدة القومية وتأصلها في الوجدان العربي كما تدل على ذلك وحدة الثقافة العربية واتصالها عبر العصور ، وبالتالي فان اجتماع هؤلاء المثقفين في هذه المناسبات الجامعة هو تجاوز لواقع التجزئة الراهن ، واحتجاج عليه واثبات لزيفه .

ومن هذه الزاوية نستطيع ان نقول ان مهرجان أبى تمام الذي عقد في الشهر الماضي بالموصل قد نجح نجاحا كبيراً .

لقد اجتمع في هذه المناسبة بالموصل وبغداد عدد كبير من الادباء والنقاد والشعراء والباحثين العرب من اقطار عديدة ، فكان منهم المغاربة والمصريون والفلسطينيون والسوريون واللبنانيون واليمنيون الى جانب العراقيين . تبادلوا مؤلفاتهم وتناقشوا حول مسائل الادب القديم والادب المعاصر واستمع منهم الناشىء للمجرب ،كما تعرف المجرب على الناشىء ، فخرج كل من عزلته ووضع نفسه وتجربته في سياقها العام من حركة الفكر والثقافة العربية

ولقد تعرفت انا مثلاعلى رجل كنت اتمنى دائما ان اتعرف عليه فلم استطع الا في مهرجان ابي تمام ذلك هو الدكتور نجيب البهبيتي الذي كان اول من عرّف هذا الجيل الجديد من المثقفين العرب بأبي تمام تعريفا صحيحا وقدمه اليهم على الطريقة الجديدة التي تمكنهم من تقديره حق قدره . وكان الدكتور البهبيتي قد ترك جامعة القاهرة منذ اكثر من خمسة عشر عاما واصبح استاذا في جامعة بغداد ، ثم اختير بعدها استاذا في جامعة الرباط فلم يتح لطلابه في الجامعة او لقرائه ان يتابعوه بعد ان سافر . ولقد وجدتني بعد أن تعرفت عليه واستمعت اليه اراجع بعض فكرتي عن تاريخ ظهور الفكرة القومية في مصر، فقد رأيت الرجل من أوائل الداعين اليها والدافعين عنها في دراساته وفي مواقفه .

واذا كان الدكتور البهبيتي ولعله الان في نهاية الحلقة السادسة من عمره ومعه الدكتور عبده عزام استاذ الادب العباسي في جامعة القاهرة ، ثم في جامعة لندن، واخيرا في الجامعة الاردنية ومعهما عدد من زملائهما العراقيين يمثلون الجيل السابق الذي بدا القاء الاضواء على شعر أبى تمام ، فان المهرجان قد ازدحم بممثلي الاجيال الجديدة . من الادباء والشعراء الدارسين الذين قدموا باجتماعهم صورة رائعة لحركة الثقافة العربية الحديثة ونضالها العظيم من اجل كسب الماضي والمستقبل معا .

ولقد كانت هذه الغاية ـ غاية استحضار الثقافة العربية وتمثل حركة العرب في التاريخ ـ وراء اجتماع هذه الاجيال من المحدثين والمعاصرين كما كانت أيضا وراء البرنامج الذي وضع لزيارتنا في الموصل . لقد كان ابوتمام هو بداية الرحلة . لكن الرحلة استمرت بعد ذلك صعودا وهبوطا لاكتشاف الدائرة الحضارية التي كان ابوتمام نقطة فيها وذلك في زيارتنا للمتاحف والمناطق الاثرية التي تحيط بالموصل وتكشف عن حضارة أكثر من الفي عام قبل ابى تمام واكثر من الف بعده . لقد زرنا آثار الاشوريين في نينوى وخورساباد ونمرود كما زرنا الحضر ثم استطعنا في عودتنا الى بغداد ان نمضي جنوبا فنزور

النجف وكربلاء متتبعين كيف تشكلت ثمرة الصنوبر في صور عديدة ما بين آثار الاشوريين والبابليين حتى استقرت في تلك الشبابيك الفضية التي تحيط بأضرحة الشهداء العلويين .

لقد كان أبو تمام يتحول في هذه الرحلة من ديوان يحقق ويدرس ويقرأ ويحفظ الى وحدة نشاط تكررها بصيغ مختلفة . فيما ابدعه الشعب العربي من حضارات وآثار . كان ينتقل من رفوف المكتبة الى صميم شعورنا بوجودنا في التاريخ .

ثم كان ابو تمام سببا الى ما قام بيننا وبين الفنانين العراقيين غير المشتغلين بالكلمة من مصورين ونحاتين ومعماريين وموسيقيين ، بل لقد كان اكثر من ذلك سببا الى ما علمنا من صور التقدم في ميادين العمل الاجتماعي المختلفة في العراق ، فامتدت الصورة بذلك عمقا كما امتدت طولا وعرضا .

وانا لا أزعم أن كل ما رأينا ، خال من العيوب أو الاخطاء ، بل استطيع ان اقول ان هناك اخطاء اساسية فيما رأينا وعلمنا لعل أخطرها تلك الاتجاهات التي تبالغ في تصور الدلالات السياسية المباشرة للاعمال الثقافية والفنية والآثار العملية المترتبة على نشرها وتداولها . ومن واجبي هنا ان أقول ان منع كتب الشاعر أدونيس من دخول العراق ليس له ما يبرره في نظري بالرغم من اختلافي الشديد مع أدونيس حول عدة مسائل ولقد وجدت هذا الموقف بعيدا عن سياسة وزارة الاعلام العراقية في الترحيب بكافة التيارات الادبية والفنية الجادة وتمكينها من التعبير عن نفسها ، وهذا ما يشجعني على أن اناشد صديقي الاستاذ الشاعر شفيق الكمالي وزير الاعلام الذي اعرف عنه سعة أفقه اعادة دراسة موقف الوزارة من كتب أدونيس . هذا مع علمي بان بعض الاتجاهات المعادية للتقدم العربي تريد أن تجعل من مثل هذه المسألة طريقا الى هدم جهود وزارة الاعلام العراقية في تنشيط حركة الثقافة العربية ليس ايمانا بحرية الرأي ولكن محاولة للهدم والاساءة ، فمن واجبنا الا نترك في يدها هذا السلاح .

واخيرا فقد كان المهرجان مظاهرة قوية ضرورية في هذه الايام التي يكاد فيها الشعب العربي يصاب باليأس من اتفاق القادة العرب ، والتي نشطت فيها التيارات الانفصالية والاقليمية نشاطا كبيرا في محاولة سخيفة للقضاء التام على أمل الطليعة العربية في الوحدة وقطع الطريق على العمل الوحدوي . واستطيع ان أقول بصراحة تامة ان هذه التيارات موجودة في كافة الاقطار العربية دون استثناء بما فيها الاقطار التي ترفع فيها النظم السياسية القائمة شعارات الوحدة ، وقد وجدت هذه التيارات الانفصالية ان هزيمة يونيو (حزيران) مناسبة صالحة لتقوية مراكزها مدعية في كل قطر انه لا يمكن الاعتماد على الاقطار الاخرى وان عليها وحدها ان تحقق كل شيء بما في ذلك شعار الوحدة الذي يكاد في اطار هذه السياسة الخبيثة ان يخدم الانفصاليين .

ولا شك ان مثل هذه التيارات والدعاوى تجد في جو العزلة الذي تفرضه بعض الاقطار على نفسها وعلى غيرها ايضا جوا مناسبا لبث سمومها وتقوية مراكزها . ومن هنا تأتي أهمية هذه اللقاءات الثقافية وضرورتها .

ان المثقفين العرب باجتماعهم يقفزون على واقع التجزئة فكرا وعملا ويثبتون لامتهم وللشعب العربي كله هزال الدعوة الى الانكفاء والاكتفاء والذلة وتكريس الاقليمية ويغذون امل الوحدة وفكرة العودة الى أحضان الامة .

ولقد حقق مهرجان أبى تمام شيئا كثيرا كسوق ادبي ومظاهرة قومية . فهو من هذه الزاوية قد نجح . بل لقد بالغ نوعا ما في محاولة ضمان هذا النجاح بعدم التدقيق في دعوة بعض الاشخاص الذين حضروه .

أما الزاوية الاخرى التي يقاس بها نجاح تلك المؤتمرات أو فشلها فهي النظر الى المطالب العلمية التي تحققها أو تقصر عن تحقيقها .

وما هي المطالب العلمية التي نتصور أن على المهرجان تحقيقها ؟

مطلبان في نظري : الاول هو القاء مزيد من الاضواء على أبى تمام شاعراً وانسانا . والآخر تحقيق نوع من العلاقة بين أبى تمام وبيننا نحن الذين نعيش في هذا العصر ومعرفة ماذا يمكن ان نستفيده من أبى تمام .

ولا شك ان تحقيق هذين المطلبين يحتاج الى شرط اساسي هو حسن الاعداد للمهرجان بما يضمن دعوة النخبة المتخصصة في أبى تمام وتوزيع موضوعات البحث عليهم كل بما هو مؤهل له وأن يبدأ ذلك من وقت يسمح بانجاز هذه البحوث والدراسات .

ولا شك أن من الذين حضروا المهرجان عددا من كبار المتخصصين في أبى تمام وفي الشعراء العباسيين عامة وعلى راسهم الدكتور نجيب البهبيتي ، والدكتور عبده عزام وبعض الاساتذة والدارسين من جامعة الموصل وبغداد ودمشق .

لكن من المؤسف حقا الا يكلف هؤلاء الدارسون بعمل محدد مما بدا معه ان دعوتهم كانت للاحتفاء بهم وتكريمهم على اعمالهم السابقة اكثر مما كانت للانتفاع بهم في انشاء اعمال جديدة عن أبى تمام .

ولا شك ان بعض البحوث الهامة قد القيت وخاصة البحث الذي قدمه الدكتور اليافي الاستاذ بجامعة دمشق عن الجدلية من شعر أبى تمام ، كما القيت بحوث وكلمات اخرى حول فنون البديع والموضوعات الرئيسية في شعره لكن هذه كانت مقالات ابتدائية وسريعة ينقصها العمق والاحاطة او ينقصها المنهج .

عام جديد

هذي الليلة ، ليست مثل الليلات ..
قالوا : لا بدّ وان نختزل الحفلات
في اروع اروع ما تعرفه اللحظات ..
والعام الراحل يتوارى ..
في بحر الذكرى
يتبعه سيل من آهات .. حرّى بالهمسات ..
الليلة عيد .. للانسان ..
والاضواء تشع كعين الطفل الفرحان
لكن الاطفال نيام هذي الليلة ..
ليس العيد لهم هذي الليلة ..
وتدق الساعة لحظات الايذان ..
بوداع الاحزان ...
لكن الحزن يحاصرني ..
يعتصر النفس .. ويسحقني ..
لم تعد الساعة وهي تدق ..
تنسج في القلب ، وفي العينين ..
ما كانت تنسجه الساعة قبل سنين ..
يا أيام الحب الصافي كالزنبق ..
كنا نصنع شعرا
نلهث شعرا ..
نركض خلف الكلمة
نزرعها ، نقطفها غيمه
نهديها قربانا للنسمه ..
لكن الايام تمر .. تمر ..
والسكين .. الشفرة صارت فوق العنق ..
والساعة مازالت في القلب ..تدق .. تدق ..
تطرق بابي . .
تشحذ شريان الاعصاب . .
وهناك على مرمى خطوات
ما زالت في الاقبية المزروعة آهات ..
أعين شبان نسيت حتى الامس
نسيت شبح حزيران الفاقع
نامت في احضان الامر الواقع ..
اصبحنا من وخز السكين .
نستنشق تخدير العار ..
ندمن احلام النسيان
ونحسّ الايام ، كما كانت : ليل ..ونهار ..
وتراب وطننا .. منهوب .. مذبوح حتى الشريان !

فارس قويدر

وقد القى الدكتور البهبيتي كلمة في افتتاح المهرجان دعى الى القائها في وقتها دون اتفاق سابق ، فدلت على علمه الواسع بالموضوع وتضمنت عدة أفكار لامعة ، لكنها لم تكن دراسة يمكن الاستفادة منها في غير افتتاح المهرجان.

ولقد كنت آمل ان يكون أهم بحث في المهرجان هو الحدود الحقيقية لتجديد أبى تمام في الشعر العربي . وهو الشاعر الذي اعتقد أنه اول من ادرك الفروق الاساسية بين لغة الشعر ولغة النثر . أقصد انه الوحيد الذي كان يعي هذه الفروق وعيا نظريا جعله مذهبا أصاب في تحقيقه وأخطأ ، لكن لم يتخل عنه ابدا بل أصر عليه ودافع عنه سابقا في ذلك شعراء عصره ونقاده .

ان أهم ما قدمه أبو تمام للشعر العربي في نظري هو انه عكس ما كان يفعل السابقون ، فقد كانوا يعبرون عن الصورة الشعرية بلغة فيها كثير من منطق النثر وادواته . فجاء هو ليستخدم المنطق في عرض الفكرة ويجرد اللغة منه كما يبدو في استعاراته وتشبيهاته المشهورة التي اسقط عنها كل ادوات التشبيه فوجه بذلك ضربة اساسية للجماليات الكلاسيكية مما جعل النقاد في عصره يتهمونه بالاصالة وكسر العمود .

ولقد كان هذا الموضوع بداية صالحة لكي يناقش المهرجان بعد ذلك قضية التجديد في الشعر العربي المعاصر من احدى زواياها .

لكن هذا لم يتم للاسف .

ويبقى بعد ذلك ما القي في المهرجان من شعر كان معظمه ضعيفا ، وكان القليل جيدا ، وربما كان السبب هو وقوع مهرجان ابى تمام في الموصل ومهرجان دمشق في ذات الوقت مما وزع الشعراء هنا وهناك فضعف المستوى .

ولقد كنت اتوقع مثلا اصدار طبعة شعبية من ديوان أبى تمام وطرحها في الاسواق العربية .

وكنت اتوقع معرضا للنسخ المزطوطة والطبعات الصادرة من ديوان ابى تمام ومما كتب عنه ، على ان يكون هذا المعرض نواة لمكتبة خاصة بأبى تمام يذهب اليها القراء والدارسون .

وكنت اتوقع كذلك تقييما علميا للدراسات الاخيرة التي ظهرت عن ابى تمام وللمهرجان الذي اقيم باسمه في دمشق عام ١٩٦٠.

ولكن هذا لم يحدث ، والعمل الوحيد المثمر في هذا المجال هو اصدار ثبت بما كتب عن ابي تمام الطائي وتوزيعه خلال ايام المهرجان .

والنتيجة ان المهرجان قصّر الى حد كبير عن تحقيق أهدافه العلمية . لكننا اذ نضع ايدينا على هذا التقصير نتمنى ان نتلافاه في المؤتمرات والمهرجانات العلمية والادبية القادمة حتى يتم لها النجاح الكامل المنشود .

القاهرة **احمد عبد المعطي حجازي**